**اى حكمة فى إيلام الحيوانات غير المكلفة**

**أى حكمة فى إيلام الحيوانات غير مكلفة ؟ فهذه مسالة تكلم الناس فيها قديما وحديثا وتباينت طرقهم فى الجواب عنها فالجاحدون للفاعل المختار الذى يفعل بمشيئته وقدرته يحيلون ذلك على الطبيعة المجردة وأن ذلك من لوازمها ومقتضاياتها ليس بفعل فاعل ولا قدرة قادر ولا إرادة مريد ومنكر و الحكمة والتعليل يردون ذلك إلى محض المشيئة وصرف الإرادة تخصص مثلا على مثل بلا موجب ولا غاية ولا حكمة مطلوبة ولا سبب اصلا وظنوا انهم بذلك يتخلصون من السؤال ويسدون على نفوسهم باب المطالبة وإنما سدوا على نفوسهم باب معرفة الرب وكماله وكمال أسمائه وأوصافه وافعاله فعطلوا حكمة وتعليلا لا يعود إلى الخالق بل إلى المخلوق فسلكوا طريقة التعويض على تلك الآلام فى حق من يبعث للثواب والعقاب وقالوا : قد يكون فى ذلك إثابة لإثابتهم بصبرهم وتألمهم وإثابة لهم وتعويض فى القيامة بما نالهم من تلك الآلام فلما أورد عليهم إيلام الحيوانات التى لا تثاب ولا تعاقب وأما المثبتون لحقائق أسماء الرب وصفاته وحكمته التى هى وصفه ولأجلها تسمى بالحكيم وعنها صدر خلقه وأمره فهم أعلم الفرق بهذا الشأن ومسلكهم فيه أصبح المسالك وأسلم من التناقض والاضطراب فإنهم جمعوا بين إثبات القدرة والمشيئة العامة والحكمة الشاملة التى هى غاية الفعل وربطوا ذلك بالاسماء والصفات فتصادق عندهم السمع والعقل والشرع والفطرةوعلموا أن ذلك مقتضى الحكمة البالغة وانه من لوازمها وأن لازم الحق حق ولازم العدل عدل ولوازم الحكمة من الحكمة**

**فاعلم أن ههنا أمرين : نفسا متحركة بالإرادة والاختيار وطبيعة متحركة بغير الاختيار والإرادة وأن الشر منشأه من هذين المتحركين وعن هاتين الحركتين وخلقت هذه النفس وهذه الطبيعة على هذا الوجه فهذه تتحرك لكمالها وهذه تتحرك لكمالها وينشأ عن الحركتين خير وشر كما ينشأ عن حركة الافلاك والشمس والقمر وحركة الرياح والماء والنار خير وشر فالخيرات الناشئة عن هذه الحركات مقصودة بالقصد الاول إما لذاتها وإما لكونها وسيلة إلى خيرات أتم منها والشرور الناشئة عنها غير مقصودة بالذات وإن قصدت قصد الوسائل واللوازم التى لا بد منها فما جبلت عليه النفس من الحركة هو من لوازم ذاتها فلا تكن النفس البشرية نفسا إلا بهذا اللازم فإذا قيل : لم خلقت متحركة على الدوام ؟ فهو بمنزلة أن يقال : لم كانت النفس نفسا ولم كانت نارا والريح ريحا فلو لم تخلق النفس هكذا ما كانت نفسا ولو لم تخلق الطبيعة هكذا ما كانت طبيعة ولو لم يخلق الانسان على هذه الصفة والخلقة ما كان إنسانا فإن قيل : فلم خلقت النفس على هذه الصفة قيل : من كمال الوجود خلقها على هذه الصفة كما تقدم وكذلك كمال فاطرها ومبدعها اقتضى خلقها على هذه الصفة لما فى ذلك من الحكم التى لا يحصيها إلا مبدعها سبحانه وإن كان فى إيجاد هذه النفس شر فهو شر جزئى بالنسبة الى الخير الكلى الذى هو سبب إيجادها فوجودها خير من أن لا توجد فلو لم يخلق مثل هذه النفس لكان فى الوجود نقص وقوات حكم ومصالح عظيمة موقوفة على خلق مثل هذه النفس ولهذا لما اعترضت الملائكة على خلق الانسان وقالوا ( أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ) أجابهم سبحانه بأن فى خلقة من الحكم والمصالح فغيرهم أولى أن لا يحيط به علما فخلق هذا الانسان من تمام الحكمة والرحمة والمصلحة وإن كان وجوده مستلزما لشر مغمور بما فى إيجاده من الخير كإنزال المطر والثلج وهبوب الرياح وطلوع الشمس وخلق الحيوان والنبات والجبال والبحار وهذا كما انه فى خلقه فهو فى شرعة ودينه وأمره فإن ما أمر به من الاعمال الصالحة خيره ومصلحته راجح وإن كان فيه شر فهو مغمور جدا بالنسبة إلى خيره وما نهى عنه من الاعمال والأقوال القبيحة فشره ومفسدته راجح والخير الذى فيه مغمور جدا بالنسبة الى شره فسنته سبحانه فى خلقه وأمره فعل الخير الخالص والراجح والأمر بالخير الخالص والراجح فإذا تناقضت أسباب الخير والشر والجمع بين النقيضين محال قدم أسباب الخير الراجحة بالأسباب المرجوحة ولم يكن تفويت المرجوحة شرا بالنسبة الى ما اندفع بها من الشر الراجح وكذلك سمنه فى شرعه وأمره فهو يقدم الخير الراجح وإن كان فى ضمنه شر مرجوح ويعطل الشر الراجح وإن فات بتعطيله خير مرجوح هذه سنته فيما يحدثه ويبدعه فى سمواته وأرضه و مايأمر به وينهى عنه وكذلك سمنه فى الآخرة وهو سبحانه قد أحسن كل شىء خلقه وقد اتقن كل ماصنع وهذا امر يعلمه العالمون بالله جملة ويتفاوتون فى العلم بتفاصيله وإذا عرف ذلك فالآلام والمشاق إما إحسان ورحمة وإما عدل وحكمة وإما اصلاح وتهيئة لخير يحصل بعدها وإما لدفع ألم هو أصعب منها وإما لتولدها عن لذات ونعم بولدها عنها أمر لازم لتلك اللذات وإما أن تكون من لوازم العدل أو لوازم الفضل والإحسان فتكون من لوازم الخير التى إن عطلت ملزوماتها فات بتعطيلها خير أعظم من مفسدة تلك الآلام والشرع والقدر أعدلا شاهد بذلك فكم فى طلوع الشمس من ألم لمسافر وحاضر وكم فى نزول الغيث والثلوج من أذى كما سماه الله بقوله ( إن كان بكم أذى من مطر ) وكم فى هذا الحر والبرد والرياح من أذى موجب لأنواع من الآلام لصنوف الحيوانات وأعظم لذات الدنيا لذة الاكل والشرب والنكاح واللباس والرياسة ومعظم الآلام أهل الارض أو كلها ناشئة عنها ومتولدة منها بل الكمالات الإنسانية لا تنال إلا بالآلام والمشاق كالعلم والشجاعة والزهد والعفة والحلم والمروءة والصبر والإحسان كما قال :**

**لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال**

**وإذا كانت الآلام أسبابا للذات أعظم منها وأدوم كان العقل يقضى باحتمالها وكثيرا ما تكون الآلام أسبابا لصحة لولا تلك الآلام لفاتت وهذا شأن اكبر امراض الابدان فهذه الحمى فيها من المنافع لللابدان مالا يعلمه إلا الله وفيها من إذابة الفضلات إذا عرض لصاحبها الحمى استبشر بها الطبيب وأما انتفاع القلب والروح باللآلام والامراض فأمر لا يحس به إلا من فيه حياة فصحة القلوب والارواح موقوفة على آلام الابدان ومشاقها وقد أحصيت فوائد الامراض فزادت على مائة فائدة وقد حجب الله سبحانه أعظم اللذات بأنواع المكاره وجعلها جسرا موصلا إليها كما حجب أعظم الآلام بالشهوات واللذات وجعلها جسرا موصلا غليها ولهذا قالت العقلاء قاطبة إن النعيم لايدرك بالنعيم وإن الراحة لا تنال بالراحة وإن من آثر اللذات فاتته اللذات فهذه الآلام والامراض والمشاق من أعظم النعم إذ هى اسباب النعم وماينال الحيوانات غير المكلفة منها فمغمور جدا بالنسبة إلى مصالحها ومنافعها كما ينالها حر الصيف وبرد الشتاء وحبس المطر والثلج وألم الحمل والولادة والسعى فى طلب أقواتها وغير ذلك ولكن لذاتها اضعاف أضعاف الآمها وماينالها من المنافع والخيرات أضعاف ماينالها من الشرور والآلام فستة الله فى خلقه وأمره هى التى أوجبها كمال علمه وحكمته وعزته ولو اجتمعت عقول العقلاء كلهم على أن يقترحوا أحسن منها لعجزوا عن ذلك وقيل لكل منهم ارجع بصر العقل فهل ترى من خلل ( ثم ارجع البصر كرتين يتقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ) فتبارك الذى من كمال حكمته وقدرته أن أخرج الأضداد من أضدادها والاشياء من خلافها فأخرج الحى من الميت والميت من الحى والرطب من اليابس واليابس من الرطب فكذلك أنشأ اللذات من الآلام من اللذات فأعظم اللذات ثمرات الآلام ونتائجها وأعظم الآلام ثمرات اللذات ونتائجها**

**ويعد فاللذة والسرور والخير والنعم والعافية والصحة والرحمة فى هذه الدار المملوءة بالمحن والبلاء أكثر من أضدادها بأضعاف مضاعفة فأين آلام الحيوان من لذته ؟ وأين سقمه من صحته وأين جوعه وعطشه من شبعه وربه وتعبه من راحته ؟ قال الله تعالى ( فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا ) ولن يعلب عسر عسرين وهذا لان الرحمة غلبت الغضب والعفو سبق العقوبة والنعمة تقدمت المحنة والخير فى الصفات والافعال والشر فى المفعولات لا فى الافعال فأوصافه كلها كمال وافعاله كلها خيرات فإن ألم الحيوان لم يعدم بألمه عافية من الم هو أشد من ذلك الالم أو تهيئة لقوة وصحة وكمال أو عوضا لا نسبة لذلك الألم إليه بوجه ما فآلم الدنيا جميعها نسبتها إلى لذات الآخرة وخيراتها أقل من نسبة ذرة إلى جبال الدنيا بكثير وكذلك لذات الدنيا جميعها بالنسبة إلى آلام الآخرة والله سبحانه لم يخلق الالأم واللذات سدى ولم يقدرها عبثا ومن كمال قدرته وحكمته ان جعل كل واحدة منهما تثمر الاخرى ولوازم الخلقة يستحيل ارتفاعها كما يستحيل ارتفاع الفقر والحاجة والنقص عن المخلوق فلا يكون المخلوق غلا فقيرا محتاجا ناقص العلم والقدرة فلو كان الانسان وغيره من الحيوان لا يجوع و لايعطش ولا يتألم فى عالم الكون والفساد لم يكم حيوانا ولكانت هذه الدار دار بقاء ولذة مطلقة كاملة والله لم يجعلها كذلك وإنما جعلها دارا ممتزجا ألمها بلذتها وسرورها بأحزانها وغمومها وصحتها بسقمها حكمة منه بالغة**

**فصل**

**ولما كانت الآلام أدوية لأرواح والأبدان كانت كمالا للحيوان خصوصا لنوع الانسان فإن فاطره وبارئه إنما أمراضه ليشفيه وإنما ابتلاء ليعاقبه وإنما آماته ليحيه فهو سبحانه يسوق الحيوان والإنسان فى مراتب كماله طورا بعد طور إلى آخر كما له بأسباب لابد منها وكماله موقوف على تلك الاسباب ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع كوجود المخلوق بدون الحاجة والفقر والنقص ولوازم ذلك ولوازم تلك اللوازم ولكن أكثر النفوس جاهلة بالله وحكمته وعلمه وكماله فيفرض أمورا ممتنعة ويقدرها تقديرا ذهنيا ويحسب أنها أكمل من الممكن الواقع ومع هذا فربها يرحمها لجهلها وعجزها ونقصها فإن اعترفت بذلك واعترفت له بكماله وحمده وقامت بمقتضى هذين الاعترافين كان نصيبها من الرحمة أوفر والله سبحانه افتتح الخلق بالحمد وختم أمر هذا العالم بالحمد فقال ( الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ) وقال ( وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ) وانزل كتابه بالحمد وشرع دينه بالحمد وأوجب ثوابه وعقابه بالحمد فحمده من لوازم ذاته إذ يستحيل أن يكون إلا محمودا فالحمد سبب الخلق وغايته بالحمد أوجده وللحمد وجد فحمده واسع لما وسعه علمه ورحمته وقد سع ربنا كل شىء رحمة وعلما فلم يوجد شيئا ولم يقدره ولم يشرعه الا بحمده ولحمده وكل ما خلقه وشرعه فهو متضمن للغايات الحميدة ولابد من لوازمها ولوازم لوازمها ولهذا ملأ حمده سمواته وأرضه وما بينهما وماشاء من شىء بعد مما خلقه ويخلقه بعد هذا الخلق فحمده ملأ ذلك كله وحمده تعالى أنواع حمد على ربوبيته وحمد على تفرده بها وحمد على ألوهيته وتفرده وحمد على نعمته وحمد على منته وحمد على حكمته وحمد على عدله فى خلقه وحمد على غناه عن إيجاد الولد والشريك والولى من الذل وحمد على كماله الذى لا يليق بغيره فهو محمود على كل حال وفى كل آن ونفس وعلى كل ما فعل وكل ما شرع وعلى كل ماهو متصف به وعلى كل ماهو منزه عنه وعلى كل ما فى الوجود من خير وشر ولذة وألم وعافية وبلاء فكما أن الملك كله له والقرة كلها له والعزة كلها له والعلم كله له والجمال كله له والحمد كله له كما فى الدعاء المأثور " اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله وبيدك الخير كله وإليك يرجع الامر كله وأنت أهل لأن تحمد " وما عمرت الدنيا إلا بحمده ولا جنة إلا بحمده ولا النار إلا بحمده حتى إن أهلها ليحمدونه كما قال الحسن " لقد دخل أعل النار النار وإن قلوبهم لتحمده ما وجدوا عليه من حجة ولا سبيل "**